http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com ◆ العدد (1505) السنة السادسة - الثلاثاء (12) ايار 2009

شارع الرشيد.. محطات تنبض بالحياة من (الرصافي) حتى (حافظ القاضي)

٢-٣

كتابة وتصوير: كاظم الجماسي

كنا قد نشرنا في صفحة (تحقيقات) في العدد (١٤٩٧) الصادر بتاريخ (٢٠٠٩/٥/٣) المحطة الأولى من ثلاث محطات كنا قد أعددناها لتنشر تباعاً، غير ان ضرورات فنية حالت دون ذلك، واليوم ننشر محطتنا الثانية..

عند ساحة الرصافي ينتهي سيل السيارات ومنها تبدأ سيول المارة من المتبضعين و العتالين، اذ تشكل الحواجز الكونكريتية فاصلا يقطع شارع الرشيد بنحو مستعرض يراد منه الحفاظ قدر المستطاع على ارواح الناس والممتلكات، كون المكان يمثل واحدا من أهم المراكز التجارية واكثرها ارتيادا من قبل شتى فئات العراقيين، أدير ظهري، معتذرا للرصافي الكبير، مبتدئا جولتي في المحطة الثانية لاستقصاء هموم الشارع و الناس. مستسلما لسيل المارة من الناس، وهم يكدحون تحصيلا لقوت يومهم، يضمني وإياهم حيز ضيق هو المتبقي من عرض الشارع المسور بحواجز كونكريتية يصل ارتفاعها حتى الحزام، وتصطف على الجانبين بسطات لبضائع لا يجمعها من جامع سوى انها وسيلة عيش لكسبة يبتغون الحصول على قوت أيامهم المتشابهة. تظللهم (شمسيات) متنوعة التصاميم، وتحيط بهم المخلفات من كل جنس ولون، فيما نداءات الباعة تشغل المكان بضجيج متصل.

بائع الأقفال والصفافير

في محل يبيع فقط كيلونات الابواب من مختلف المناشئ ومختلف الاحجام التقينا السيد رائد رضا وسألناه عن طبيعة عمله ومنشأ بضاعته وأحوال مهنته ،والمعوقات التي تعترض عمله فأجاب: منشأ البضاعة معظمه صيني، وثلاثة أرباعها استيرادنا الشخصي و الربع الباقي نشتريه من التجار، وبسبب الأزمة العالمية تأثر السوق لدينا على الرغم من نزول الأسعار، فنحن نعاني من فتور في البيع، وبالنسبة لخدمات أمانة بغداد أشاد بتعاون منتسبي الأمانة من ناحية النظافة والخدمات، اما عن موضوعة الكهرباء الوطنية فقد ذكر انه منذ الانفجار الذي حدث في السوق العربي قبل ما يقرب من السنتين ونحن محرومون من تيار (الوطنية) وقد زارنا احد المسؤولين من وزارة الكهرباء وكان يجهل تماما انقطاع التيار، فأخذناه في جولة ميدانية لنريه الدمار الذي لحق بالمحولات والكيبلات.

مضينا الى الأمام ،وكان هناك في منتصف الشارع بسطة كبيرة نسبيا عرضها يعادل عرض بضاعة محل كاملة، وكانت بسطة مخللات لأنواع متعددة من الطرشي و العمبة و الصاص و الزيتون بأنواعه.

يحيى أبو زكريا ذكر لنا ان حرفته صناعة المخللات بجميع انواعها منذ ما يقرب العشر سنوات، فهو يصنعها في مخزن يقع في احد فروع شارع الرشيد القريبة من هنا. وأوضح معاناته قائلا: كنت موظفا ايام النظام السابق على ملاك وزارة الصحة، ولم يقبلوا عودتي للوظيفة تحت تبرير كوني لست سياسيا، وأنا اليوم اعمل في هذه البسطة واستحصل رزقي يوما بيوم.

ففي اليوم الذي امرض فيه او يصادفني عائق اجتماعي او أي عائق اخر افقد رزق عائلتي، نحن محرومون من أي ضمان صحي او اجتماعي لذا اقترح على المسؤولين تخصيص مبلغ شهري يدفع مع الحصة التموينية كنوع من الإعانة على العيش للعوائل، وهذا (كما يقول السيد أبو زكريا) مطلب شرعي لاننا مواطنون لنا حصة من خيرات بلد غني كالعراق.

غادرنا بسطة المخللات والبسطات المجاورة متوجهين نحو سوق الصفافير مرهفين السمع لعل أصوات المطارق وضجيجها الذي كنا قد اعتدنا سماعه فيما مضى. ولكننا ونحن ندخل في السوق لم نسمع سوى صمت (اهل المقابر) اقتربنا من محل يبيع التحف النحاسية ورحب بنا شاب في الثلاثينيات من عمره هو السيد كرار حسين الذي ذكر لنا ان هذا المحل كان قائما منذ الثلاثينيات من القرن المنصرم، وتوارثنا العمل فيه ابا عن جد. ولما سألناه عن غياب الضجيج المعتاد في سوق الصفافير اجاب قائلا: لا ابالغ اذا قلت لك ان سوق الصفافير وصل مرحلة الانقراض وذلك بسبب البضاعة المستوردة الصينية وهي رخيصة جدا، إضافة الى بطالة اهل الحرفة (الاسطوات) بسبب ان حرفتهم لم تعد مجزية لاعالتهم وعوائلهم. ولذا بدأ سوق البزازين يزحف بنحو سريع على سوق الصفافير وقام اصحاب المحلات من الصفارين بتأجير محلاتهم لجيرانهم البزازين.

وعن حركة السوق النسبية بعد التغيير ذكر قائلاً: لقد أصاب السوق كساد شبه تام بعد حصار عام ١٩٩١ وذلك كما تعلمون ان مهنتنا تعتمد بشكل رئيسي على البيع للسياح الأجانب والعرب الوافدين الى بغداد، وقد توقف ذلك منذ التاريخ المذكور.

،وبعد عام ٢٠٠٣ عاود السوق نشاطه للتحسن النسبي في الأوضاع و الانفتاح الكبير الذي شهدته اسواق العراق المختلفة وبقينا في مد وجزر خلال السنوات المنصرمة، وتبعا للمستوى الأمني في البلد.

وطالب أخيراً السيد كرار بمنع استيراد التحف النحاسية او فرض ضرائب عالية عليها من اجل انقاذ ما تبقى من حرفة الصفارين لكي يعود سوق الصفافير الى سابق عهده معلما سياحيا بارزا من معالم بغدادنا الحبيبة.

قدما نحو الشورجة

من بين الفتحات المعدودة التي تتوزع الاسيجة الكونكريتية الطولية نفذنا عابرين الى الجهة المقابلة، فأغرانا مشهد يبعث على البهجة، مشهد أنواع الفواكه التي تحيط بأجهزة الخلاطات الممتلئة بأنواع العصائر الطبيعية. التقينا داخل المحل صاحبه السيد هيثم عبد الاحد الذي أوضح معاناته من فقدان الكهرباء منذ عام ١٩٩١ واعتماده على المولد الكهربائي هو وبقية المحلات المجاورة.

وأكد ان احدا من المسؤولين لم يعرهم اهتماما يذكر منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم، هذا من ناحية خدمة الكهرباء، اما من ناحية خدمة الماء فأكد ان الماء مقطوع عندهم منذ سنوات مما اضطرهم الى (تجطيل) الانبوب عبر الشارع، ويعترف ان الامر غير قانوني ولكن ماذا بوسعهم ان يفعلوا سيما انهم أصحاب محل عصائر اذ يشكل الماء شريان الحياة بالنسبة لعملهم.

وعن خدمة أمانة العاصمة أشار السيد هيثم ان امانة بغداد متعاونة جدا معنا اذ ترفع الانقاض والنفايات اربع مرات في اليوم الواحد.

ونحن نقترب من الشورجة يمر في خاطرنا شريط من الذكريات عن خانات وأسواق هذا المكان الموغل في القدم، اذ يخترق خياشيمك عبق الماضي الممزوج بطيبة اهل بغداد الاصلاء واخلاقهم الكريمة.

الشورجة عالم فسيح ومتشعب، لن نستطيع إيفاءه حقه كاملا هنا، كوننا معنيين برصد حياة شارع الرشيد وشاغليه.

اما متفرعاته فتقتضي منا فتح ملفات أخرى، ولذا اكتفينا بلقاء السيد حازم كريم صاحب محل مفروشات يقع عند مدخل شورجة البزازين وباعة المفروشات، أوضح لنا السيد حازم طبيعة عمله قائلا : نشتري بضاعتنا من المستوردين، ومعظمها بضاعة صينية والقليل منها سوري المنشأ، ونقوم ببيعها لاصحاب محلات المفرد في بغداد والمحافظات.

وعن موضوعة المنتج المحلي فقد أكد تفوقه من حيث الجودة والمتانة على سائر المنتوجات المستوردة، ولكن ما يعترض إنتاجه على نحو واسع كثير من المعوقات أبرزها ضعف التيار الكهربائي وغلاء الأيدي العاملة والمواد الأولية فضلا عن المنافسة غير المتكافئة مع المنتج المستورد، وبشأن موضوعة الخدمات فقد ذكر ذات المعاناة بالنسبة للتيار الكهربائي، ولكنه امتدح نشاط أمانة بغداد، واليوم عموما حالنا افضل بكثير عما كانت عليه في اعقاب تغير النظام او الأوضاع الامنية التي كانت متردية سيما ما سبق احداث الفضل.

ويشتد الزحام البشري والبسطات امام حاجز مستعرض وضع لحماية بناية البنك المركزي العراقي، وتنتشر في المكان اكوام عديدة من النفايات فيما الفوضى ضاربة، وهناك ممر ضيق جدا يسمح بمرور الأشخاص من جهة جامع الخلفاء حتى اجتياز بناية البنك ليعود منفتحا مرة أخرى.

في داخل هذا الممر الضيق تلاصقت بسطات الألبسة النسائية والرجالية والولادية بجوار منظمات قناني الغاز وأجزائها، جنبا الى جنب مع زجاجات (اللالات) وفتائل المدافئ النفطية وغيرها كثير من انواع البضائع.

وفي مفتتح السوق العربي من جهة شارع الرشيد التقينا السيد مؤيد جاسم محمد صاحب محل لبيع الالبسة الرجالية وسألناه عن طبيعة عمله واهم مايعترضه من معوقات فأجاب قائلاً: جميعنا يعلم ما تعرضت له معامل الخياطة المحلية من خراب وتوقف، علما ان مستوى الخياطة لا يبارى في الذوق والمتانة والدقة، اذ ان لدينا خياطين محترفين (اسطوات) وهم اليوم انضموا الى جيش العاطلين عن العمل مع الأسف، ولذا بتنا نستورد بضاعتنا من الخارج وتحديدا من تركيا وقليلا من سوريا.

واليوم، وفي ظل التحسن الأمني المتحقق بنسبة (٩٠٪) ازدادت الحركة الشرائية بالنسبة لسوقنا، اذ نبيع بضاعتنا الى محلات المفرد في بغداد والمحافظات، ولا ندخل في محلنا سوى ما يرضي ذوق الشاب العراقي لانه صعب إرضاؤه، كما أضاف: نحن مؤجرون من أمانة بغداد عن طريق المزايدة العلنية، ولدينا طلب استغاثة من أمين بغداد ان يأتي بنفسه لنريه كيف ان النفايات المحيطة ببناية السوق العربي ترتفع يوميا حتى انها تكاد تدفن السوق.

منطقة العمار وبيت لنج وسوق الهندي

دخلنا مجددا في اتساع الشارع النسبي فلمحنا لافتة محل كنا قد احتسينا من قهوته ايام السبعينيات، وهو قائم حتى اليوم يقدم خدماته لزبائنه ورواد الشارع، اللافتة تقول (بن الضيافة يرحب بكم) وحين طلبنا من الشاب الواقف خلف (الفاترينا) الزجاجية ان يتحدث لنا قليلا اعتذر عن ذلك معللا انه عامل في المحل وصاحب المحل غير موجود، غادرناه متقدمين الى الأمام لشرب (استكان) من الشاي فتوقفنا أمام محل (شاي ابو سلام) وهو محل مشهور في منطقة العمار التي تزدحم بمعامل الصناعات الجلدية. رحب بنا السيد ابو سلام وهو رجل يربو عمره على السبعين اجمل ترحيب واخبرنا انه يزاول هذه المهنة منذ عام(١٩٤٧) اذ كان يبيع الشاي في محل يقع مقابل (بيت لنج) عند عمارة عبد العزيز البغدادي. ويقوم بتهيئة خلطة خاصة من انواع متعددة من الشاي الهندي والسيلاني والتايلندي زائدا الهيل العراقي، ولذا هو يتميز بتقديم شاي فاخر لزبائنه الذين يقصدونه من شتى اطراف بغداد، كما ذكر لنا ان الزعيم عبد الكريم قاسم وقبل حدوث ثورة ١٤ تموز كان زبونا دائما يرتاد محله اذ كان يحلق عند محل الحلاق المجاور لمحله.

وعن ذكرياته عن ايام زمان ذكر انه كان كمعظم ابناء المهنة يدورون في مختلف المناطق القريبة حاملين اقداح الشاي وإناءه على صينية يبيعون الشاي لشاربيه.

ويقول عن الوضع اليوم انه نعمة من الله وان شاء الله سيتحسن اكثر. فيما امتنع اولاده وهم عمال المحل عن الحديث معنا.

سوق الهندي سوق متخصص ببيع وتصليح مكائن الخياطة المنزلية والصناعية ولوازمهما، وقد تأسس في مطلع القرن المنصرم، كما يخبرنا السيد علي التميمي صاحب محل في السوق ويضيف: شهد السوق فترات أزدهار حقيقية، أبان التسعينيات من القرن المنصرم، فرب ضارة نافعة، اذ أنتج الحصار المفروض على العراق آنذاك حالة من التدبير عند العائلة العراقية، فأقبلت على شراء مكائن الخياطة، وصيانة العاطل منها، كما لم تواجه معامل الخياطة منافسة المنتج المستورد لعدم وجوده في السوق المحلية بسبب الحصار، ولكن الامر تغير تماما بعد تغيير ٢٠٠٣/٤/٩ اذ انفلتت الامور بما يسيء لمجمل اوجه الاقتصاد، وراحت البضائع الرديئة المستوردة تغزو اسواقنا لتشل صناعتنا الوطنية بنحو بالغ، وسوق الهندي لمكائن الخياطة واحد من تلك الاسواق المتضررة، اذ توقفت معظم معامل الخياطة ومعامل صناعة الأحذية والسراجة والمصنوعات الجلدية وغيرها من المعامل ذات الصلة.

وعن سؤالنا بشأن حال السوق اليوم أوضح السيد التميمي، أن الحال اليوم يشهد تحسنا ملحوظا بسبب استتباب الامن وعودة الحياة تدريجا لشارع الرشيد، ونتمنى له التحسن المستمر بجهد الطيبين من ابناء عراقنا الحبيب.

في الجهة المقابلة من سوق الهندي، كانت واجهة احد المحلات ملفتة للنظر بطريقة عرضها من خلف زجاجها الصقيل اللامع، لمختلف الأنواع والأشكال والحجوم من الحقائب النسائية. دخلنا المحل والتقينا العلوية أم احمد صاحبته، وبعد الترحيب وشرب الشاي، حدثتنا قائلة : أنا صاحبة معمل سراجة منذ أكثر من عشرين سنة وصاحبة معرض كذلك، اذ كنا أيام ازدهار العمل ننتج أنواع الحقائب وفقا لاحدث التصاميم العالمية، ونبيعها هنا في هذا المعرض وغيره من المعارض، كما كان لنا زبائننا في شتى المحافظات. ولكن بدأنا العد التنازلي مذ حدث الخراب بالمنظومة الكهربائية وتدفق المستورد من البضائع المنافسة، كيفنا أنفسنا لهذه الحالة الجديدة، فأوقفنا المعمل او هو توقف تلقائيا برغم أنوفنا، واختصرنا العمل على المحل ورحنا نشتري الحقائب المستوردة، حالنا حال عباد الله، لنبيعها بالمفرد على المواطنين.

مرت بنا فترات من الاغلاق الاجباري لمحلاتنا، للظروف الأمنية المعروفة، ولكن اليوم وبفضل الانفراج الأمني، تحسن السوق ولم يبق غير فتح الشارع لتتحقق الانسيابية في المرور.

على مقربة من (سوق الهندي) سوق المكائن، كانت معلقة على كلاليب حديدية، مجموعة من أفخاذ اللحم الغنم (الهرفي) فيما اصطفت داخل صندوق من الالمنيوم المزجج اسياخ الكباب العراقي الشهي. في واجهة مطعم (ولاية علي) لصاحبه الشاب فراس سلمان الذي حدثنا وهو منهمك في زحمة عمله قائلاً: طالما الوضع الامني بخير نحن بخير، كبابنا لحوم عراقية خالصة، لحم عجل عراقي مخلوط ب(لية) غنم عراقي، وهذا سر نجاحنا، وعن مستوى الخدمات أوضح: في الكهرباء والماء نعتمد شعار اخدم نفسك بنفسك، حتى موضوع مجاري المياه الثقيلة المسدودة منذ زمن طويل، نقوم بسحبها على نفقتنا الخاصة، نتمنى فتح الشارع وعودة انسيابية المرور فيه مثل ايام زمان.

على محيط قوس واسع تنتشر مجموعة من محلات الصاغة معظمها مقفل حالياً، فيما يحيط القوس بحديقة نصف دائرية يتوسطها تمثال الزعيم، عبد الكريم قاسم، يقوم على قاعدة اسطوانية من المرمر يبلغ ارتفاعها اكثر من مترين، ومعلق على وسطها من الأمام شعار الجمهورية العراقية الأولى، وتحيط بها شتلات متنوعة من الزهور والحشائش الخضر، تسمى الساحة اليوم ساحة الزعيم (الغريري) سابقا.

على الطرف الأيمن من الساحة يقع محل ابو ابراهيم وزوجته، وهو مخصص لبيع الانتيكات من البرونزيات والنحاسيات والايقونات والمسبحات واللوحات التشكيلية القديمة والمصوغات والاعمال الفضية اليدوية.

في البدء رفض أبو إبراهيم رفضا قاطعا الإدلاء بأي كلمة، مبررا ذلك بالاجدوى، ولكن بعد أخذ ورد معه وافق على التحدث مشترطا علينا عدم تصويره شخصيا، الأمر الذي جعل السيدة زوجته (أم إبراهيم) الموافقة أيضا تحت ذات الشرط، وقد ابتدأت الحديث قائلة : مهنتنا شأنها شأن المهن الاخرى ذات الصلة بهوية العراق الوطنية، تتعرض اليوم الى تخريب يكاد يكون مقصودا، اذ دخل للاتجار بها نفر من الجهلة والطارئين عليها الذين لا يمتلكون اي حس وطني بالمسؤولية، وهمهم الوحيد جني اكبر ما يمكن من المال عن طريق أية وسيلة كانت. فيما تدخل أبو ابراهيم قائلا: تنتعش هذه المهنة متى ما انتعشت الـ(تورست) - يقصد السياحة- ونحن منذ عام (١٩٩١) وحتى اليوم نعاني موت المهنة البطيء،اذ ليس هناك منذ ذلك التاريخ سياحة بالمعنى الواسع للكلمة، وهذا يعني توقف شبه كامل في أرزاقنا، فضلا عن ان بعض الطارئين راح يستورد التحف المصنعة في الصين وهي من النوع التجاري الرديء، مما أثر بنحو كبير على أخلاق المهنة، ومردوداتها، وهناك مسألة في غاية الحساسية وهي ضعف الاهتمام الرسمي بالمحافظة على هذه المهنة، كونها تمثل الهوية الوطنية للبلد.

التاجر الذي طغى على الملك

عند واجهة عريضة في ركن الشارع النازل من جسر الاحرار نحو ساحة حافظ القاضي، كان محل السيد دريد عبد الجبار احمد لبيع التجهيزات الرياضية واحدا من محال سوق متخصصة تنتشر في الساحة وعند رقبة الجسر.

وفي مدخل الرشيد المنبثق من (حافظ القاضي) كذلك. كانت المعروضات عبارة عن كرات مختلفة الإحجام والاشكال والاستخدام، ومعدات رفع الاثقال وكمال الأجسام، ومضارب لكرة المنضدة والريشة والتنس، وأنواع متعددة من الألبسة الرياضية(شورتات ودريزات وتراكسوتات وترينشوزات) إضافة الى مناضد متنوعة للبليارد والفيشة وكرة المنضدة، وأجهزة متعددة للرشاقة وتخفيف الوزن كالدراجات الهوائية والأحزمة الرجاجة والمصاطب المفصلية المتحركة.

استقبلنا السيد دريد صاحب المحل بحفاوة وترحاب. وعن طبيعة مهنته وواقعها حدثنا قائلاً: مهنة بيع التجهيزات الرياضية تشهد اليوم ازدهارا وتوسعا ملحوظين، على العكس من حالها أبان فترة التسعينيات من القرن المنصرم، اذ كان هنا في السوق مستوردان اثنان فقط يتحكمان بنوع البضاعة واسعارها، التي كانت باهظة جدا، فيما اليوم تدنت الاسعار وصار بمقدور الرياضي اقتناء ما يحتاجه بسهولة ويسر وتنوع في الاختيار، وبشأن أهم المعوقات التي تعترض عملهم أوضح: لسنا نعاني اليوم من شيء، بعد التحسن الامني الملحوظ، سوى خدمات التنظيف وأملنا بتحسن التيار الكهربائي. أما عن مستوى حركة السوق فتشهد ركودا نسبيا بسبب الموازنة وانخفاض اسعار النفط، والأزمة الاقتصادية العالمية.

هنا توقفت جولتنا في محطتها الثانية عند ساحة حافظ القاضي، وبالمناسبة يذكر لنا التاريخ القريب أن (حافظ القاضي) تاجر عراقي لامع، وشخصية تقدمية كانت على صلة بمعظم رجالات السياسة في العهد الملكي، وكان اسم الساحة آنذاك ساحة الملك فيصل الثاني، الا ان (القاضي) استحوذ على تسمية الساحة لحب الناس له.

ومن الطريف انه أول من استورد تلفزيون (باي) ووضع جهازاً منه في واجهة محله، ثم قام بوضع كاميرا بشكل (مونيتر) ينقل صورة من يمر أمامها الى شاشة التلفزيون مباشرة، حتى أكتظ الناس كل يريد أن يرى صورته شاخصة على تلفزيون (الباي)، وفي عام (١٩٥٤) عندما بدأ تلفزيون بغداد بثه، باع حافظ القاضي أعدادا كبيرة من بضاعته.